دراسات عن مقدمة ابن خلدون

الأستاذ ساطع الحصري

للأستاذ دريني خشبة

عندما فرغت في العام الماضي من قراءة الجزء الأول من كتاب الأستاذ الجليل ساطع الحصري (أبو خلدون) عن مقدمة (ابن خلدون) أيقنت أنني لم أضع وقتي سدى في قراءة هذا الكتاب الثمين، وأيقنت أن ابن خلدون جدير بأن يوليه مفكرونا وكتابنا عنايتهم، كما يولي مفكرو الغرب وكتابه عنايتهم على الأقل، وإن كان واجبنا يقتضينا أن نسبقهم إلى ذلك ونلزمهم فيه ... فليس كثيراً على ابن خلدون أن يكتب فيه الدكتور طه حسين رسالة يكسرها على فلسفته الاجتماعية، ثم يأتي الأستاذ عبد الله عنان فينقل إلى العربية تلك الرسالة، ويزيد فيضع كتاباً جديداً عن حياة ابن خلدون وتراثه الفكري، ثم يتفرغ الأستاذ أبو خلدون لوضع مؤلفه الشامل عن مقدمة ابن خلدون فيملأ أيدينا ووعينا ببحث عجيب مستفيض عن هذا الرجل العبقري الذي يعتبر بحق نابغة الأمة العربية في علم الاجتماع، وقد أصدر الأستاذ ساطع بك الجزء الثاني من بحثه القيم عن المقدمة هذا العام (١٩٤٤)، وما كدنا نراه حتى أكببنا عليه نتلوه، بل ندرسه، في شغف وفي شوق وفي إعجاب

تناول المؤلف في الجزء الأول موقف ابن خلدون من الكهانة والنجامة والسحر ومشيئة الله، والأدوار التي لعبتها هذه الأشياء في التاريخ؛ ثم نبذة شاملة عن حياة ابن خلدون لم يقتصر فيها على ما كتبه المؤرخ عن نفسه في الرسالة المحفوظة بدار الكتب المصرية، والتي تنقص تاريخ فترة طويلة من حياته تبلغ إحدى عشرة سنة إلى وفاته؛ ثم تاريخ كتابة المقدمة وشعور ابن خلدون بأنه إنما استحدث في علم التاريخ حدثاً جديداً لم يسبقه إليه أحد، وانتقل إلى ما حدث من إهمال المؤرخين العرب للأسس التي وضعها ابن خلدون في مقدمته لعلمي التاريخ والاجتماع وما كان من تنبه المؤرخين العثمانيين إليها آخر الأمر، وانتفاعهم بها في وضع تواريخهم، وذلك من نعيا صاحب التاريخ المعروف إلى عبد الرحمن شرف المؤرخ الرسمي الأخير، مما أدى إلى ترجمة المقدمة إلى التركية قبل ترجمتها إلى أية لغة أوربية بنحو من قرن كامل، ثم تناول بعد ذلك لغة المقدمة فشرح نظرية النقد التفسيري شرحاً لم يسبقه إليه أحد في العربية، وفسر لنا

عقدهم، وباعدت بينهم، ومنعتهم الإلتئام في مثل هذا الجمع، حوادث الحرب وما قبل الحرب من الثورة والجهاد، وممارسة الخطوب الشداد، فما كان أعظم غبطتي، وما كان أسعد جدي أن كانت زورتي الدينة الكريمة مقرونة باجتماع الشمل، وانتظام الجمع. تكلم صديقنا المجاهد محمد يعقوب القصين وتكلم عدة من كرام الشبان فأفاضوا ما شاء أدبهم وكرمهم محيين المجاهد الكريم، والزعيم الاقتصادي أحمد حلمي باشا والضيف المصري الذي لا يرى نفسه في فلسطين ضيفاً، ولا يعد القاهرة أولى به من الرملة. وتكلمت على وجوه يعرفها قلبي وإن لم تشهدها عيني مستمداً من تاريخنا ومآثرنا وأخلاقنا وعزائمنا ما يثبتنا في هذه المحن، ويربط على قلوبنا في هذه الفتن، ويجمع الكلمة في هذه المصائب، ويؤلف العزائم لهذه النوائب، وألقيت إليهم من تاريخنا وأخلاقنا وأواصرنا مقاليد المستقبل الكريم، الوضاء الذي يبسم في أعقاب هذه الظلمات، ويتنفس من وراء تلك الكربات. ومن وراء كلامي ما يضيق عنه الكلام، وتتلقفه عن الوجدان الأفهام. لقد كانت ساعة جليلة لا تزال تضيء في جوانحي، وتشتعل في سرائري.

أصبحت إلى مطار اللد في صحبة إخواني الكرام أتمثل بقول القائل:

وتكرم جارنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث مالا

وأنشد قول أبي الطيب في طريقه إلى مصر:

إذا السحاب زفته الريح مرتفعاً ... فلا عدا الرملة البيضاء من بلد

عرجنا على بنك الأمة العربية في اللد فلبثنا حتى سرنا إلى المطار وقد قصصت قصته من قبل في حديث عن الطيران من اللد إلى القاهرة

عبد الوهاب عزام

بعض العبارات التي تعيننا على فهم أسلوب ابن خلدون ومقاصده من كثير من العبارات التي خرج بها على المعاني المألوفة لها مما يحدث التباساً في مسايرته إلى أغراضه إن لم نلم بها قبل قراءة المقدمة ، وهذا فضل لم نر بداً من تسجيله للأستاذ ساطع في هذه الكلمة السريعة الموجزة . ثم يستطرد بعد هذا فجأة إلى نسب ابن خلدون ، ويناقش الدكتور طه حسين فيما ذهب إليه من شك ابن خلدون نفسه في نسبه ، كما يناقش الأستاذ عنان أيضاً في هذه المسئلة . ونرجو أن تكون لنا عودة بصدد هذه المناقشات

وفي القسم الثاني من الجزء الأول يتناول الأستاذ الجليل مكانة المقدمة في تاريخ « فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع » ويحدثنا عن فيكو وآرائه ، كما يحدثنا عن مونتسكيو ونظرياته ، مقارناً بينهما وبين ابن خلدون ، ومكانة ابن خلدون من علم الاجتماع ونظرة علماء أوربا إلى نابغة العرب . والأستاذ ساطع يثير إعجاب القارىء إلى أقصى حد بسعة إطلاعه وجهوده العميقة الموفقة التي بذلها في هذا القسم من أقسام الكتاب ، فهو يلفتك إلى عشرات وعشرات من المراجع الهامة التي يضع بين يديك خلاصتها ، ويثير فيك فضول الاطلاع بالرجوع إليها ، فمن أروع ما أثبته هنا خلاصة ما كتبه (روبرت فلنث) عن ابن خلدون وتفضيله على جميع أنداده ممن كتبوا في فلسفة التاريخ . ولا يفوتنا ونحن نكتب هذه اللمحة ، أن نعارض بشدة ما أورده « فيكو » من أن العبرانيين ، ثم الكلدان ، ثم الأسكيت ، ثم الفينيقيين أقدم جميعاً من المصريين ... لقد بطلت هذه النظرية أتم البطلان ، وأثبتت مجموعة البداري الأثرية التي يرجع عهدها إلى ما قبل خمسة عشر ألف سنة ، كما أثبتت مئات الشواهد التاريخية الأخرى أن المصريين هم أقدم أمة على وجه الأرض

ويتناول القسم الثالث من الجزء الأول (آراء ابن خلدون ونظرياته) فيحدثنا عن موضوع التاريخ ومهمة المؤرخ ، وطبيعة الاجتماع ومنشأ الحكم ، والقسر الاجتماعي والتقليد وطبائع الأمم وسجاياها ، ونظرية العصبية والخط والكتابة . وقد ذكرتنا معظم هذه الفصول برأي لنا قديم نشرناه[1] عن تلمذة ابن خلدون لإخوان الصفا في رسائلهم المشهورة ، وانتفاعه بما جاء في هذه الرسائل ، ولا سيما عن تأثر طبائع الأمم وسجاياها ببيئة الإقليم ومناخه وهوائه ومحصولاته وأثر الجوع والخصب في أخلاق الشعوب ودياناتها ، كما ألمعنا إلى أوجه الشبه بين ما قرره إخوان الصفاء في رسائلهم عن الزهد ودرجات الناس ، وعلاقات أولياء الله وكيف آتاهم الله القدرة على إدراك الغيب ومعرفة بواطن الأمور ، وما ذهب إليه ابن خلدون في هذه الأمور جميعاً بما يشبه أن يكون نقلاً أو اقتباساً عن إخوان الصفاء . وكذلك ما كتبه ابن خلدون عن النجامة فهو يشبه ، إن لم يكن هو ، ما قرره إخوان الصفاء من قبل ... وكم كان يسعدنا أن يتنبه إلى هذه الملاحظة الهامة كتابنا الأجلاء الذين ألفوا عن ابن خلدون . وقد تناول الأستاذ الحصري بالتفنيد ما يذهب إليه بعض العلماء من شعوبية ابن خلدون وحملته على العرب . ولسنا بمعرض مناقشة آرائه الآن ، إلا أننا ننبه هنا إلى أن ابن خلدون كان متأثراً في هذه الحملة بما قرأ في رسائل إخوان الصفاء ... وفي الرسالة الحيوانية مصداق لهذا كله

وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن الجزء الثاني لا نرى بداً من التنويه بما أفاض فيه الأستاذ الحصري عن نظرية العصبية واتصالها بالاجتماع السياسي ، ومناقشته لآراء المؤلفين الأجانب الذين عنوا بابن خلدون بصدد هذه النظرية . إنه فصل يستحق الأستاذ عليه ألف تهنئة

***

أما الجزء الثاني من هذه الدراسات العميقة القيمة عن ابن خلدون ، فلسنا نعدو الحق إذا قررنا أنه خير ما قرأناه هذا العام (١٩٤٤) في المكتبة العربية من نوعه ، وإن كنا لا نطيق تأجيل عتبنا على الأستاذ للهجة التي ناقش بها آراء الدكتور طه حسين وخصوصاً تكراره ألفاظ : «ادعى فلان ، وادعاء فلان ، ويدعي فلان ، وحظ أقوال فلان من الحق والصواب ... ثم التعريض بمعلومات الدكتور العلمية حينما كان يكتب رسالته » إن هذا كله يثبت أن الأستاذ الجليل ساطع الحصري كان متحمساً وهو يكتب مؤلفه الخالد ، فأوقعته حماسته فيما لا يناسب سجايا العلماء ولا سيما إن كانوا من طراز الأستاذ الحصري ... ولندع ذلك الآن ...

تناول الجزء الثاني الكلام عن التطور التدريجي في الطبيعة والمجتمعات وسبق ابن خلدون إلى إدراك مذهب النشوء والارتقاء قبل داروين بأحقاب طويلة ، كما تناول الكلام عن المذاهب الأساسية في علم الاجتماع وما استحدث في هذا العلم من نظريات شتى ، وما سبق إليه ابن خلدون من الإلماع إلى هذه النظريات ،

(١) المجلة الجديدة السنة الأولى العدد الثامن ١٩٣٠